المحاضرة الحادية عشرة: معالم نظرية غادامير

الحقيقة أن الأصول الأساسية لنظرية التأويل عند "غادامير" مرتبطة بشكل حميم بتوجيه الإهتمام إلى اكتشاف المعنى الصحيح للنصوص؛ أي اكتشاف المعنى الأصلي بغض النظر عما إذا كانت هذه النصوص تمتلك جذوراً دينية أو دنيوية. وقد فضلنا ذكرها على شكل نقاط ليسهل على القارئ معرفة أهم معالمها:

- **إستقلالية النص عن المؤلف**:

يلاحظ "غادامير" أن النص يمثل شخصية مستقلة لا ينبغي أن تتحدد بقصد المؤلف، أو الذين كُتب لهم هذا النص. إنه هوية مستقلة عن مؤلفه. ولا يرتبط الهدف من تفسيره ببلوغ قصد المؤلف وفهمه، لأنه لا أهمية لقصد المتكلم، أو الكاتب من عمله وكلامه أو كتابته.، كما لا أهمية لفهم مخاطبيه الأصليين الذين كُتب لهم النص. المهم حسب غادامير ما يمكن للمفسر أن يفهمه حسب معلوماته المتطورة، وأحكامه وآرائه المسبقة، وتوقعاته وأسئلته من النص وما ينتج من حواره معه. ومن ثم يرتبط فهم النص بالقارئ لا بالمؤلِّف. لقد كان الإهتمام الأساسي للتأويل قبل شلاير ماخر هو إعادة بناء الخلفية التاريخية للنص، وتحديد سياقه التاريخي. ثم جاء شلاير ماخر فأضفى على التأويل طابعا نفسيا، لكنه أبقى على الإعتقاد القديم. لذلك لا بد من تجاوز فكرة إعادة بناء النص باعتبارها عملية أساسية ونهائية في التأويل، لأن المعنى الذي نبحث عنه قد يكون أوسع من قصد المُؤلف، ولأن الغرض يتوقف على الأسئلة التي نطرحها على النص في الحاضر. وقد ظهرت دراسات كثيرة(تؤكد سلطة القارئ على النص، كتلك التي قام بها "رولان بارت" الذي يُجاهر بموت المؤلف الذي لا يملك من عمله سوى لحظة كتابته. في كل عمل فني أو نص معين حقيقة كامنة تتغير وتتجدّد باستمرار، أو بالأحرى هي معين لا ينضب من المعاني و الرموز و الدلالات المتعددة، وقد عبّرت عنها مقولة: عاش القارئ مات المُؤلف أحسن تعبير.

- **عملية التفسير حوار بين المفسر والنص**:

إن عملية الفهم تدمج الذات في الموضوع بحيث تخلق علاقة "ذوبان" بين الباحث وموضوع بحثه. أي أن النص يتم فهمه لا لأن هناك علاقة بين أشخاص، بل لأن هناك مشاركة في موضوع الحديث الذي يُوصله النص. ولا تتم عملية الفهم بطريقة واحدة في كل الظروف، لأن درجة الفهم تتحدد دائما وفق درجة الاستغراق في الموضوع. فكلما كان الاهتمام قويا دخل الباحث إلى أعماق الموضوع وعايش الخبرة بصورة تامة، وهذه هي أقصى درجات الموضوعية. وعلى ذلك ليس الفهم عملية ذاتية بقدر ما هو مسألة أن يضع المرء نفسه في تراث، ثم في الحدث الذي ينقل التراث إليه. الفهم إذن مشاركة في تيار التراث، في لحظة امتزاج الماضي و الحاضر. وبهذا تصبح عملية الفهم عبارة عن حوار بين الذات والموضوع. حوار بين المفسر والنص بحيث يكون لوعي المفسر تأثيره الفاعل، وليس أحدهما مستمعاً فحسب، والآخر متحدث، بل كلاهما يتحدثان، المفسر والنص. وليس النص كيانا جامدا وصامتا على النحو الذي نجده في موضوعات العلم. وليس الحوار جدليا على النحو الذي يقدّمه "هيجل" بحيث تدخل الذات في تناقض جدلي مع الموضوع.

إنما هو حوار ينتهي إلى ذوبان الذات في الموضوع والعكس. النصوص التي نفسرها تتحدث إلينا بوصفها أشكالا لغوية وجودية، ونحن نتعامل معها من خلال خبرتنا السابقة، بحيث أن اللغة تتحدث عن وجودها الخاص، ومن ثم فإن لها وجودا مستقلا عن الأفراد، ولذلك يمكن أن تُفهم النصوص كمنتجات ذات معنى دون تكوين معرفة خاصة عن مؤلفيها. و يتحدّد الحوار بمنطق السؤال والجواب، المفسر يسأل، والنص يجيب، غير أن هذه الأسئلة تنتمي وتنطلق من الأفق الذي تعيشه الذات. أي الأفق الذي يرتبط بالحاضر، في الوقت الذي تتحدد فيه النصوص بأفق الماضي. وعلى ذلك يصبح الفهم التأويلي عملية تعميق انتمائنا للحاضر وفهمنا له. وهو ما يفسر التواصل الوجودي بين الحاضر و الماضي من جهة ويفسر أن عملية الفهم لا تنتهي ولا تكتمل، بحيث أن كل فهم جديد يفتح أفقا جديدا يؤسس لحوار جديد. إن اكتشاف الحقيقة يبقى إذن مرهونا بتواصل الحوار بشكل مستمر.

- **تأثير الأحكام المسبقة على المفسر:**

لقد ذكرنا أن فهم النص يقتضي الدخول معه في حوار أساسه انصهار الذات الباحثة في موضوع بحثها. غير أن ذلك لابد أن يتحدّد في ضوء الأسئلة التي نُوجّهها إلى النص من الحاضر، وهنا تُطرح مشكلة الأفكار والتصورات والأحكام المسبقة التي لدينا عن تلك النصوص، لأن القراءة لا تنطلق من فراغ، ولا يسأل المفسر النص وهو فارغ الذهن، بل لا بدّ له من وعي فكري وأفق معرفي يتشكل من قبليات المفسر، فهل يمكن أن يعتبر هذا خطرا على الفهم؟ هل يتحدد الفهم الصائب للنصوص بضرورة استبعاد الأحكام المسبقة أم باعتمادها؟

يرى "غادامير" أن الحكم المسبق هو تركة عصر التنوير الذي رسم حدوده "كانط" بمقولته:" تشجّع على استخدام فهمك الخاص". وقد كانوا يرجعونه إما إلى سلطة الأشخاص الواجب احترامهم، أو إلى التسرع. لقد كان نقد عصر التنوير مُوجها في المقام الأول ضد التراث الديني المسيحي. أي أن غرض التأويل في تلك الفترة أن يفهم النصوص المقدسة فهما صائبا. أي فهما عقلانيا بعيدا عن كل حكم مسبق، باعتبار أن الحقيقة الكامنة في النص تتطلب جهدا نقديا ذاتيا كي يتحرر القارئ من جميع التصورات السابقة التي هي في الأساس خاطئة، وتحول دون فهمنا للنص. ودرج الفلاسفة على هذه الحقيقة منذ "ديكارت"، ذلك أنه ينبغي أن يُحسم في كل أمر أمام محكمة العقل. بل إن العقل هو الذي يبرر مشروعية النص. "فالعقل، وليس التراث هو الذي يُمثّل المصدر النهائي لكل شرعية". ومثلما تَعتَبِر العلوم الطبيعية شهادة الحواس موضوعا للنقد، كذلك ينظر عصر التنوير إلى التراث باعتباره موضوعا للنقد. وحتى نقد الحركة الرومانسية- رغم ما جاءت به من جديد- لم يكن كافيا لتجاوز عصر التنوير، بل بقيت في حدوده.

هناك أحكام مسبقة سابقة لأوانها وتمثل عوائق إبستيمولوجية بالمفهوم الباشلاري، وهي فعلا تعرقل إمكانية بلوغ الحقيق. وهناك بالمقابل أحكاما مسبقة مشروعة، بل قل هي شروطا للفهم. للأسف لم ينتبه التأويليون القدماء ومنهم "شلاير ماخر" إلى أن هناك أحكاما مسبقة صادقة. وأن

التحيز لا يعنى سوى تحديد فردي للفهم. أي أن الفرد يفضل في أغلب الأحيان ما هو قريب من مجال أفكاره الخاصة. و طالما أن المفسّر يعيش داخل التاريخ، حيث تحيط به مجموعة من المعلومات والأحكام التي تشكلت وترسّبت في ذهنه باعتبار أن الوجود الإنساني تاريخي بالدرجة الأولى، فلا بد إذن أن ينطلق في فهم النص من هذا الأفق الراهن. لأنه لا يستطيع إعادة لحظة الماضي على النحو الذي جرت في الأحداث بصورة موضوعية. ثم إن الأحكام المسبقة ليست لصالح شخص معين أو سلطة معينة بقدر ما هي لصالح مضمون معين يساعد على فهم الحقيقة. الخطأ الذي وقع فيه كل من ينادي بالمنهج العلمي الصارم في التعامل مع النصوص التاريخية، هو البدء بالتحرر من الأهواء و الميولات التي تؤثر سلبا على عملية الفهم. لكنهم أهملوا أن هذه النوازع الذاتية ستمارس فعلها في الخفاء شاء المفسر أم لم يشأ. وعلى ذلك يقتضي الأمر مواجهتها انطلاقا من كونها عوامل أصيلة في عملية الفهم. الأحكام المسبقة للفرد هي أكثر من مجرد أحكام خاصة به. إنها الواقع التاريخي لوجوده، بل قل إنها أساس قدرتنا على فهم التاريخ على الإطلاق. إذن يصعب تصور تأويل دون فروض مسبقة. لأن هذه الخلفيات هي في الأصل مؤسسة على التراث، وليست مستقلة عنه. إنها توجد في اللاشعور الجمعي بتعبير عالم النفس" كارل غوستاف يونغ" أحد تلاميذ "فرويد". ثم تؤثر في الفرد ولو بصورة لا إرادية. يقول "غادامير": " إن البحث في العلوم الإنسانية لا يمكن أن يعدّ نفسَه في تناقض مطلق مع الطريقة التي نرتبط فيها نحن، بوصفنا كائنات تاريخية، بالماضي، بأي حال، فإن علاقتنا العادية بالماضي لا تتميز بابتعادنا عن التراث، وتحررنا منه، بل إننا بالأحرى متموقعون ضمن التراث، وتموقعنا هذا ليس تموقعا بإزاء موضوع، فنحن لا نتصور التراث شيئا آخر، أو شيئا غريبا عنا. فالتراث دائما جزء منا، كنموذج أو كمثال أو كنوع من الإشارة المميزة التي تفيد أنه من الصعب لحكمنا التاريخي الأخير أن يُعتبر نوعا من المعرفة، بل هو صلة روحية حميمة بالتراث".

- **ليس للنص تفسير نهائي ثابت، وإنما له تفسيرات متعددة لا نهائية:**

كل نص قابل لتفسيرات متعددة حسب تعدد المفسرين وخلفياتهم و لا ينبغي حصر الحقيقة النهائية عند مفسر معين. لأن كل مفسر يخضع لظروف معينة وله أحكام مسبقة وتصورات معينة أيضا، وعلى ذلك نتوقع تفسيرات متعددة ومختلفة. بل قد يحدث اختلافها و تعددها لدى المفسر الواحد. ولهذا ارتباط كبير بمسألة اللغة التي عالجها "غادامير' على نحو متميز. اللغة هي الوسط الكلي الذي يحدث فيه الفهم.وكل فهم هو تأويل. و كل تأويل ينمو في وسط لغوي يحاول من خلاله أن يحضر الأشياء من خلال الألفاظ مع بقائها بصورة كلية لغة المؤول الخاصة. و وهو ما يعني أن لكل تأويل طبيعة لغوية . العالَم حسب غادامير يقدم نفسَه في اللغة. والتجربة اللغوية للعالم هي تجربة مطلقة. إذ تتجاوز كل الطرق النسبية التي يطرحها الوجود، ذلك لأنها تشمل الوجود ذاته بأسره، أيا كانت العلاقات التي تظهر فيها دائما. وكل لغة لها علاقة مباشرة بلانهائية الكائنات. وامتلاك لغة يتضمّن شكلا للوجود يختلف تماما عن الطريقة التي يوجد بها الحيوان في بيئته. و عندما يتعلم الناس لغات أخرى فإنهم لا يغيرون علاقتهم بالعالم مثل الحيوان، بل إنهم يثرونه و يوسعونه من خلال هذه اللغات الأجنبية، من خلال الإحتفاظ بعلاقتهم الخاصة بالعالم. يقول

غادامير: " كل من له لغة "له" عالَم". وشأن من يترجم من لغة أخرى، أو يتعلم لغة أخرى شأن المسافر الذي يعود إلى وطنه محمّلا بخبرات جديدة. وحتى إن لم يعد إلى وطنه فلا يمكن للنسيان أن يخترق ما لديه من نوازع وتصورات وأهواء. إن مساءلة النص والإنصهار في أفقه لا تتحقق إلا لغة. لذلك يصل "غادامير إلى أنه لا يمكن أبدا أن نفصل بين الفهم واللغة، لأن حقيقة الفهم لغوية. إن الفهم يحصل داخل اللغة، وكل فهم مفسر وكل تفسير مرتبط باللغة. على أن اللغة تتمتع بقدرة عجيبة على القول تسمح لنا بخلق العالم الذي يمكن لكل شيء أن يتكشف فيه. و بذلك تفتح لنا اللغة عالما مختلفا عن العالم الذي نعيش فيه، غير أنه بإمكاننا أن نفهمه. مع العلم أن غادامير يرفض الوظيفة الدلالية للغة. ويؤكد على العكس أن اللغة لا تشير إلى الأشياء، بل الأشياء تفصح عن نفسها من خلال اللغة. وفهمنا لنص أدبي لا تعني فهم تجربة المؤلف، بل تعني فهم تجربة الوجود التي تفصح عن نفسها من خلال النص.

وعندما يتناول"غادامير" مشكلة بداية الفلسفة اليونانية في كتابه" بداية الفلسفة" فهو يمارس تأويلا لتلك النصوص باعتبارها ملامسة للثقافة الغربية الراهنة، ومن ثم فهو لا يستدعيها لمجرد وضع تاريخ لها. فما يتهدد الثقافة الغربية من قلّة الثقة بالنفس نتيجة ارتباطها المفرط بالمناهج العلمية والتنظيمات التقنية أدى إلى تراجع الإحساس القوي بالحياة لديها، وتآكل روح المغامرة التي تأسست عليها الفلسفة اليونانية في البداية. ومن خلال نظرته التأويلية يميل إلى القول أن بداية الفلسفة اليونانية عرفناها فقط من خلال التأريخات المدرسية التي تحددت بـ"أفلاطون" "أرسطو"، والتي درج عليها الفلاسفة ومؤرخو الفلسفة. وهو أمر غير صحيح، لأن الموقف الأفلاطوني و الأرسطي من الفلاسفة اليونان المتقدمين كان من أجل خدمة خطابهما الفلسفي فقط لا أكثر. وعلى ذلك فالطريق الذي رسمه أفلاطون و أرسطو للفلسفة القديمة غير آمن، ولا بد من تجاوزه. لقد لاحظ أن أي إرث فلسفي ينبغي أن يبدأ بالإندراج داخل مناقشاتنا التي عليها أن تكفّ النظر عن الإعتقاد بمفاهيم واضحة فيما يتعلق بالفلسفة اليونانية، لذاك يشيد غادامير بالجهد الكبير الذي بذله "هيدجر" في قراءة التراث اليوناني. وأنه أعاد للثقافة اليونانية لحظة شبابها.